مفكرو الإسلام

أحمد بن حنبل يتحدى الخلافة العثمانية

للدكتور حسين مؤنس

إن الخليفة المأمون يمتحن الناس فى إيمانهم ، إنه خليفة مستنير وأمير جليل ، ولكنه سلطان لاتسلم نفسه من شدة السلاطين ، كان فارسى المنبت فاكتسب من أصله الفارسى حبا للعلم وميلا الى الانصراف إليه ، وقد أحاط به المؤدبون — وفيهم كثير من الفرس — فجعلوا يبثونه مايمازج دمهم من حب أهل البيت ، حتى مال إليهم واقتنع أنهم أصحاب الحق الاول فى هذا العز الذى يستأثر به العباسيون . وهاله أن يجد الكثرة الغالبة من رعيته لاتنصرهم ولاتنهض لرد حقهم ، فأحب أن ينصفهم بعض الانصاف ، فتشيع لهم زمانا ، ولكنه عاد فترك الأمر إذ وجد فيه خطرا شديدا على ملكه وسلطانه ؛ ثم انصرف إلى الجدل الدينى ، فراقته اراء المعتزلة ، وأعجب بها إعجابا شديدا . فهؤلاء قوم لايقولون بشىء إلا إذا رضيت عنه عقولهم ، ولايسلمون برأى مجبر بن بل طائعين مختارين ، وقد تناولوا بفكرهم كل شىء فانتهوا إلى اراء جديدة لم يسبقهم أحد إليها ، بل لم يقرهم كثير على المضى فيها ، وكانوا قوما أحرار الفكر حقا ، أرادوا أن يتعمقوا فى دينهم ، وألا يقفوا أمام سر من أسراره جامدين دون فهم ، فمضوا يتساءلون عن الله : ماهيته وطبيعته وأصله وصفاته ، وعن الرسول ونفسه وأفكاره وغاياته ؛ وعن القرآن ومعانيه ومراميه وأصوله ، ومادق وغاب عن الفكر من لفظه وتركيبه .

وهنا انتهى بهم إدمان التفكير إلى رأى جديد طريف فى أصل القرآن ، قالوا : إن القرآن قد نزل حسب الحوادث التى حدثت أيام الرسول ، أى أنه حادث مخلوق . وكان أكثر الأئمة لا يرى هذا الرأى أو قل إنهم لم يفكروا فى هذا الموضوع ، وإنما كانوا يعتقدون بداهة أن القرآن لم ينزل بحسب الحوادث أو المشاكل التى عرضت للرسول وإنما هو اقدم من ذلك ، أى وجد من قديم الأزل فلم يتنزل لحادثه ولم تخلق اية منه لمشكلة طارئة ، هكذا كان إيمان الكثرة الغالبة من فقهاء المسلمين وأئمة مفكر بهم فى ذلك الزمان ، استمع المأمون إلى رأى المعتزلة فوجد أنه اقرب إلى العقل وأصح فى حساب المنطق ، فتشيع له . وهنا قامت الخصومة بينه وبين فقهائه وعلمائه ، فلم يطق أكثرهم خصومته بل سلموا برايه طائعين او خائفين ، وارتاح المأمون لطاعة العلماء ،، وكتب الى صاحب شرطته إبراهيم بن إسحاق يأمره بامتحان من بقى على الإباء منهم ، فأتى بهم ، فسلموا واطاعوا ، لم يشذ منهم إلا اربعة كان فكرهم اعز عليهم من راحة ايدانهم ، فرفضوا ان يجيبوا عمال المأمون إلى مايطلبون ، فاذا يئس صاحب الشرطة منهم فقد كتب إلى الخليفة فى امرهم ، وهم : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، وعبيد الله بن عمر القواريرى ، والحسن ابن حماد . فلما بلغ الخليفة أمرهم ملكه الغضب وامر ان يؤتى بهم إليه ، فلم يكد إثنان منهما يسمعان بذلك حتى تخونهما العزم ونكصا على عقبيهما واطاعا ، واصر اثنان على ماذهبا إليه ، فحملا إلى المأمون مقيدين مصفدين ، هما : احمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح .

ترى كيف يفعل المأمون بهذا الرجل الضعيف أحمد بن حنبل ؟ أتراه يعفو عنه ويخلى سبيله احتراما لعلمه اوضنا بدينه وتقاه أن ينالهما أذى ؟ أم تراه يأخذه بعنف وينزل به من العقاب الأمر الشديد ؟ كان الخليفة يعرف أن الإمام لم يكن يرضى عن خلافه بنى العباس ، إذ كان يرى أنها قائمه

على الاغتصاب وإذلال العرب ، وقد جعلوا دأبهم منذ صارت الأمور إليهم أن يقضوا على كل معارضة بحد السيف ، وأن يفرقوا كل مخالف فى دمه وهاهم أولاء يسرفون فى المعصية ويلجون فى الترف حتى ليكادون أن يبتعدوا بالإسلام الصحيح عن طبعه البسيط الصافى ، وهاهى ذى قصورهم تضطرب بالجوارى وتعج بالخدم والندمان والمغنين وأصحاب اللهو من كل صنف ، وهاهم المتشددون من أهل الدين يلقون على أيديهم عذابا هو شر عذاب . فهذا أبو حنيفة يهان ، وذلك مالك يحتمى بالحجاز ، وهذا الشافعى يقاطعونه ويدابرونه ، فكيف يرضى عنهم إمام عفيف كابن حنبل ؟ إنه ليقاطعهم ويجعل بينه وبينهم سدا ، وهل ينسى المأمون أن هذا الرجل قد أبى أن يلى لأبيه قضاء اليمن ؟ فلما كلمه الإمام الشافعى فى هذا نظر إليه وقال : « تأمرنى أن أدخل لهم القضاء ؟ » . كأن الدخول لهم فى القضاء معصية لا يقترفها إمام طاهر كابن حنبل ، فلنر الآن كيف يكون الأمر بين السلطان والإمام ، بين الدنيا والدين ؟

يحسب المأمون أن ليس أيسر عليه من العسف بعالم لا حيلة له أمام الشرط والسياط ، ولكن الأمر ليس بهذا اليسر ، فانه يستطيع أن يأمر صاحب شرطته أن يضرب الفقيه العظيم الفاضل بالسياط حتى تكل يد الضارب ، ولكنه لا يستطيع أن يرغم الفقيه على أن يغير رأيه أو يقول مالا يعتقد ، لأن رجلا واحدا ذا إيمان يستطيع بايمانه أن يزيل عشرات المأمين وعشرات السلاطين .

وكأنما تهيب المأمون الاقدام على عمل لا يجرؤ عليه إلا أمير غرته الدنيا وعبث برأسه الشيطان ، وقد أجابه معظم القضاة وذو والشان الى ما طلب . وكان حريا به أن يترك ابن حنبل وشانه ، فهـذا واحد من عشرات . ولكن غرة سلطانه أبت أن تعلو عليها إرادة رجل فاضل واحد ، ومن ثم أرسل يهدد الفقيه الجليل عساه يبلغ منه بالتهديد ما

يكفيه مئونة الشدة والأذى . ولكن ابن حنبل تلقى وعيد السلطان هادئا ساكنا ورد عليه ردا لاجفوة فيه ولا استثارة ، فما كان من المأمون إلا أن أمر بهذا الرجل (والنفر الذين أبوا الإقرار معه) أن يضربوا بالسياط كما يضرب المجرمون والعابثون بحرمات الناس .

والآن فلنمض إلى حيث يمتحن هذا الرجل الجليل . لنشهد منظرا يهز فؤادنا هزاً ، لنستمع إلى حديث ميمون بن الأصبغ ، فقد رأى امتحان ابن حنبل بعينيه . قال :

« كنت ببغداد فسمعت ضجة ، فقلت . ما هذا ؟ قالوا : أحمد بن حنبل يمتحن ، فأتيت منزلي فأخذت مالا له خطر ، فذهبت به إلى من يدخلني المجلس ، أدخلوني فاذا بالسيوف قد جردت وبالرماح قد ركزت . وبالتراس قد نصبت . وبالسياط قد طرحت ، فالبسوني قباء أسود ومنطقة وسيفاً ، وأوقفوني حيث أسمع الكلام ، فاذا أمير المؤمنين فجلس على كرسي ، وأتي بأحمد بن حنبل فقال له : وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربنك بالسياط أو تقول كما أقول ! ثم التفت إلى جلاد فقال . خذه إليك (فأخذه ، فلما ضرب سوطا قال : « بسم الله » ، فلما ضرب الثاني قال : « لاحول ولاقوة إلا بالله ، فلما ضرب الثالث قال : « القرآن كلام الله غير مخلوق » فلما ضرب الرابع قال : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » فضربه تسعة وعشرين سوطاً .

هكذا ظل الرجل يعذب كل يوم ، لا يزال الجلاد يضربه حتى يغمى عليه . والخليفة مصر على أن يرغمه على التسليم بما يريد ، وهو ملازم للحق لا يبارحه ، ولكن الله يهبط بالرحمة على عبده ، فيقبض إليه المأمون قبل أن يستخرج من فم هذا الرجل كلمة واحدة . وأراد ربك لهذا العامل القوي الذي دوخ الملوك والذي نشر سلطانه على الدنيا أن يعجز أمام رجل واحد ثابت على مبدئه . .

وهذا أحمد بن حسان يحدث فيقول : « لما حملت مع أحمد إلى المأمون تلقانا خادم وهو يبكى ، ومسح دموعه وهو يقول . عز على يا أبا عبد الله ما نزل بك ، فقد جرد أمير المؤمنين سيفاً لم يجرده قط ، وبسط نطعاً لم يبسطه قط ، ثم قال : وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأ رفعت السيف عن أحمد وصاحبه حتى يقول : (إن القرآن مخلوق) فجثا أحمد على ركبتيه ، ولحظ السماء بعينيه ودعا ، فما مضى الثلث الأول من الليل إلا ونحن بصيحة وضجة ، فاقبل علينا خادمه وهو يقول : صدقت يا أحمد . القرآن كلام الله غير مخلوق ، لقد مات والله أمير المؤمنين ! »

ثم أقبلت أيام المعتصم ، وهو رجل تركى المنبت لا يميل إلى الفكر ولا يعنى بامر العلماء ، ولكنه ورث عن أخيه المأمون هذا الأمر ، فاشتد فيه بما عرف عنه من الشدة والعنف ، حتى لقد حدث ابو عياض أن المتعصم (حبس الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ثمانية وعشرين شهرا كان فيها يضرب بالسياط إلى أن يغمى عليه . وينخس بالسيف حتى يرتمى على الأرض ويداس عليه .

ثم مضت أيام المعتصم وأقبلت أيام الواثق فاشتدت المحنة على أحمد وهو صابر ثابت . حتى مات الواثق ، وأقبل المتوكل فرفع المحنة عن أحمد وأمر باحضاره وإكرامه وكتب إلى الآفاق برد المحنة عنه وإظهار السنة ، وأن القرآن غير مخلوق ، ودعاه إلى قصره .

فلما دخله التفت الى أمه وقال :

— يا أماه قد أنارت الدار بهذا الرجل !

لقد انتصرت الفكرة وفاز الإيمان . لقد انتصر الرأى وأخفق السلطان !